



Pratidhwani the Echo

A Peer-Reviewed International Journal of Humanities & Social Science

ISSN: 2278-5264 (Online) 2321-9319 (Print)

Impact Factor: 6.28 (Index Copernicus International)

Volume-VIII, Issue-I, July 2019, Page No. 318-328

Published by Dept. of Bengali, Karimganj College, Karimganj, Assam, India

Website: <http://www.thecho.in>

دراسة حول حياة الشيخ يوسف النبهاني

Mohammad Aijaz

Research Scholar, Dept. of Arabic, AMU, Aligarh

Abstract

Imam -al-qadi Yusuf bin Ismail-Al-Nabhani (1849-1932) born in Ijzim, Palestine was a Palestinian Sunni Islamic great scholar, judge, prolific poet, and defender of the Ottoman Caliphate. He died in Beirut. His teachings have influenced much of Sufism's development and Prophetic Eulogies in the 19th and 20th century. This article is highlighting the entire facts of his life. Many of Shaikh Yusuf -al-Nabahani's poems, books, and teachings have remained, but very little is printed about his personal life and activities.

Key words: Sheikh Yusuf -al-Nabhani; Sunni Islamic; Sufism's Development; Prophetic Eulogies.

التوطئة: كان يوسف بن إسماعيل النبهاني من العلماء الكبار والشعراء العباقرة الذين اشتهروا بشعرهم في الأدبيات العالمية، وخاصةً في باب المديح النبوي، والذي أنجبه القرن التاسع عشر الميلادي، ويعد رائداً من رواد الأدب العربي الحديث الذين ساهموا مساهمةً تستحق العناية والتقدير في ترقية الأمة دينياً وثقافياً واجتماعياً، وقاموا بأداء خدمات هائلة لإيقاظ المجتمع العربي في زمن الاحتلال الإنكليزي، وبتحريض الأمة المسلمة على تعزيز علاقاتها مع الله ورسوله المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد حظيت شخصية النبهاني بتأليف عدة كتب قيمة في مختلف الموضوعات نظماً ونثراً، ولكن يمتاز النبهاني بكثرة المدائح النبوية، ولقبَ بـ"بوصيري عصره"¹ نسبةً إلى الشيخ شرف الدين البوصيري بمساهمته البارز فيها.

والسبب الذي انفجرت به المدائح النبوية بأقلام الشعراء في العصر الحديث أنه زمن الاحتلال الإنكليزي ومظالم الاستعمار والخراب والدمار، وقد اشتد نفوذ الإنجليز على الفلسطينيين في مستهل القرن العشرين، ووقتئذٍ كان الفلسطينيون يئنون تحت وطأة الاحتلال ومظالم الاستعمار، ويسعون لإعادة مجدهم وأرضهم، ويقومون بالثورات للحرية والاستقلال، وخصوصاً ينظم أكثر الشعراء في فلسطين أشعارهم التي تثير القلوب، وتغلي الأدمغة، ويحثون بها الأمة المسلمة على الأخوة والمحبة والاتحاد بينهم، ومن المعلوم أن ذلك العصر عصر المعاناة والشدائد والتحدى الأكبر للمسلمين، فلجأوا فيه إلى الله يعبدونه ويهللونه طلباً منه المعونة، وإلى حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام يقرضون أشعارهم في مدحه طلباً بها النجاة والشفاعة في الآخرة، والتخلص من الاستعمار وشدائده، ومن الدمار والخراب، ومن الظلم والفوضى، وقصر النبهاني شعره على المدائح النبوية لأن حب الله ورسوله عليه الصلاة والسلام يختلج في قلبه أشد الاختلاج وقد وقف شعره عليها لترسيخ فضائله في المجتمع العربي، ولتعزيز علاقة المسلمين بالله تعالى ورسوله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

¹ النبهاني، يوسف، الشرف المؤبد لآل محمد، تحقيق: أبو الفضل أحمد بن منصور قرطام، ط، 2015، ص: 5

اسم النبهاني ونسبه وأسرته: إن اسمه يوسف بن إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن محمد ناصر الدين النبهاني، وكانت أسرته تنسب إلى "بني نيهان"، والنبهانيون قوم من عرب البادية، استوطنوا منذ أقدم الأزمان قرية "إجزم" بصيغة الأمر التي تقع في الجانب الشمالي من أرض فلسطين من البلاد المقدسة، والآن التابعة لحيفا من أعمال "عكا" في ولاية بيروت². ويقول الأستاذ مصطفى مراد الدباغ عن نسبة النبهاني إنها نسبة إلى عشيرة النباهين من قبيلة "الحنجرة"، وبنو نيهان بطن من "بني سماك" من لخم³.

وقد جاء ذكر "بنو نيهان" في كتب الأنساب، منها: العقد الفريد، ج: 3، ص: 399، وكتاب قلب جزيرة العرب، ص: 161، وكتاب الاشنقاق، ص: 380، وكتاب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص: 429، وكتاب عشائر العراق، ج، 1، ص: 187، وكتاب جمهرة الأنساب، 446، وقد جاء اسم "نيهان" في نسب طيئ بطنان الأول يرجع إلى كهلان وهو طيئ بن أدد واسمه جلهمه بن أدد وطيئ بطنان جديلة والغوث فمن بطون جديلة من طيئ: الثعالب وبنو غيم، من بطون الغوث من طيئ ثغل وبحتر قبيلة الشاعر البحتري وجرم ونيهان وبولان وغيرهم غير بولان عك...ومن بطون ثغل من الغوث: الجواد حاتم بن عبد الله المعروف بحاتم طيئ ومن بطون نيهان بن الغوث: زيد الخيل بن مهلهل وهو الذي قال له النبي عليه الصلاة والسلام عندما قدم إليه: يا زيد كل ما وصف لي رأيتك دون ما وصف لي إلا أنت فإني وجدتك فوق ما وصفت لي وسماه زيد الخير بالراء المهمله، ومن نيهان أيضاً أبو تمام⁴.

ويتحدث الدباغ عن أوراق وقعت في يده، يحتفظ الأستاذ محمد خير النبهاني بها، فجاء فيها ذكر النباهنة الذين يعيشون في غزة الآن وأن جدهم هو نيهان النباهين، وقد كان شيخ قبيلة الحنجرة التي تتألف من عدة قبائل، إحداهما قبيلة النباهين، ثم جاء فيها الحديث عن أحد الفرسان المشهورين من النباهنة وهو سالم بن سلمان بن نيهان النبهاني، والذي ناصر قبيلة التياها ضد الترايين سنة 1874م، فنفاه رؤوف باشا التركي متصرف القدس، ومكث في سجن القدس سبع سنوات، وفضلاً عن هذا يكتب كاتب الأوراق في بيان تاريخ النباهين واشتراكهم مع الفدائيين المصريين في حرب فلسطين سنة 1948م، وبالنهاية ذكر صاحب الأوراق فيها عن وجود صلة قديمة بين عائلة النبهاني في أجزم وغزة حيث يقول... وقد كانت العلاقات مستمرة ومتواصلة إلى أيام الجد إبراهيم بن سالم بن سلمان بن نيهان النبهاني منذ حوالي خمسين سنة تقريباً، والجد إبراهيم كان على علاقة وثيقة مع نباهنة إجزم بحكم القرابة، فكان يقطع المسافات البعيدة لزيارة أقاربه بالحصان، وفي أغلب الأوقات يصطحب معه محمود بن سلامة بن نيهان النبهاني كما أن بعض النباهنة من أجزم كانوا يبادلونه أيضاً الزيارات.

وليس من العجيب أن أي إشارة لا توجد في كتب يوسف النبهاني إلى أي صلة بين نيهانيي أجزم ونيهانيي بئر السبع، كما أن أجداد الذين ذكرهم النبهاني في ترجمته لا يشتركون مع أي جد من أجداد علي بن سالم بن إبراهيم صاحب المخطوط بعنوان "النباهنة في منطقة غزة"، مع أنه هذه الأوراق اعترف بها الأستاذ محمد خير النبهاني ابن عم الشيخ يوسف النبهاني واحتفظ بها، فقد أجاب الأستاذ مصطفى مراد الدباغ أن يوسف النبهاني لم يهتم بذكر شيء من هذا القبيل، فذلك لأنه بحكم شخصيته الدينية المتصلبة لم يكن ممن تعنيه هذه المسائل. والأستاذ أمين النبهاني أخ الأستاذ محمد خير النبهاني قال: سألتُ الشيخ يوسف النبهاني عن صحة ما يقال من أن آل النبهاني من الأشراف فانتهرني وقال ما معناه "إياك أن أسمعها منك مرة ثانية"، وأن العلماء ترجموا يوسف

². النبهاني، يوسف، الشرف المؤبد لآل محمد، المكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 2007، ص: 130

³. الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، منشورات دار الطليعة، بيروت، ج، 7، ص: 657

⁴. طرف الاصحاب في معرفة الأنساب، ص: 36-37

النبهاني فذكروا أنه من قبيلة "بني نبهان" من عرب البادية استوطنوا قرية "أجزم" منذ أقدم الأزمان، ولم يذكر أي واحد منهم كيف توصل إلى هذا الربط.⁵

وبالرغم مع هذا يمكن القول باليقين أن أسرة النبهاني تنتمي إلى "بني نبهان"، كما أثبت يوسف النبهاني عن انتماء أسرته إليها بذكر كلمة "النبهاني" مع اسم والده في ترجمة نفسه فقال: "... وقرأت القرآن على سيدي ووالدي الشيخ الصالح الحافظ المتقن لكتاب الله الشيخ إسماعيل النبهاني"⁶. وكان الشيخ إسماعيل النبهاني معروفاً بالعلم الذي يجيده علماء الجامع الأزهر لورود كلمة "الشيخ" مع اسمه، كما جاءت كلمة الشيخ للنبهاني في إجازة الشيخ إبراهيم السقا رحمه الله، فيقول النبهاني بنفسه عن ذلك: "وقد أجازني رحمه الله بإجازة فائقة وهي هذه بحروفها بِيِّمَ اللهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ لك الحمد على مرسل الأئمة ومرفوعها، ولك الشكر على مسلسل نعمائك وموضوعها، بحسن الإنشاء وصحيح الخير، يا من تجيز من استجارك وافر الهبات، وتجز من استجارك واعر العقبات، فيغدو موقوفاً على مطالعة الأثر، ما بين مؤتلف الفضل ومتفقه، ومختلف العدل ومفترقه، جيد الفكر سليم الفطر، يجتني بمنهج قياسه شريف الفوائد، ويجتني بمبهج اقتباسه شريف الفوائد... أما بعد فلما كان الإسناد مزينة عالية، وخصوصية لهذه الأمة غالية، دون الأمم الخالية، أعنتني بطلبه الأئمة النبلاء أصحاب النظر، إذ الدعي غير المنسوب، والقصي غير المحسوب، وسليم البصيرة غير أعشي الفكر، ولما كان منهم الإمام الفاضل، والهمام الكامل، الجهد الأبر، اللوذعي الأريب، والألمعي الأديب، ولدنا الشيخ يوسف ابن الشيخ إسماعيل النبهاني الشافعي أيده الله بالمعارف ونصر"⁷

وقد بين الدكتور عيسى محمد علي منصور ماضي في رسالته الجامعية: أن والده الحاج محمد علي منصور قرأ القرآن على الشيخ إسماعيل النبهاني في مسجد أجزم، وأن والده يذكر أنه عندما يقرأ والشيخ إسماعيل يسمع له كان الشيخ صالح الخديش يتوضأ فصيح له قراءة آية فصاح الشيخ إسماعيل وقال: يا شيخ صالح احفظ أدبك مش عارف ممن يسمع له الولد ما غطي أعد قراءتها يا ولد فأعاد القراءة الأولي نفسها، فطلب المعذرة الشيخ صالح الخديش، وقال: سامحني يا شيخ إسماعيل والله ما كنت أحفظها إلا كما رددته.

ويذكر الوالد أيضاً أن جميع أهل أجزم يلون الشيخ إسماعيل ويوقرونه، وكان قوله مسموع حتى عند شيوخ البلد من آل ماضي حيث كانت مقاليد الأمور الرسمية بأيديهم وقتها. وكان الشيخ إسماعيل ذا هبة ووقار، وأسرته كانت معروفة بأنها أسرة علم ودين، وكانوا قلة في العدد بالنسبة للأسر الأخرى، ويؤيد قول الوالد ما ذكره الدكتور فاضل زيدان من أن خمسة من أبنائها كانوا أزهريين مع قلة عددهم.⁸

مولد النبهاني ونشأته: ولد يوسف النبهاني في قرية "أجزم" عام 1265هـ/1849م تقريباً⁹، وقرية أجزم هي أكبر قري قضاء حيفا مساحةً وسكاناً، فتبلغ مساحتها 91 دونم، وترتفع نحو 100م عن سطح البحر، ومساحتها 46905 دونم، لا يملك اليهود فيها أي شبر، وكان عدد سكانها 1948 ما يقرب من خمسة آلاف نسمة، وهي غنية بأملاتها وسكانها وكلهم مسلمون، وسكان أجزم مشهورون بحب العلم والتدين، وقد تعلم الكثير من أبنائها في الجامع الأزهر، منهم الشيخ يوسف النبهاني.

وعندما بدأت الهدنة الثانية بين الجيوش العربية واليهودية في صباح 19 تموز في عام 1948م، استغلها اليهود وهجموا على عدة قري في الكرمل واحتلوا قرية عين غزال وأجزم في الثاني والعشرين من تموز في

⁵. ماضي، د. عيسى محمد علي منصور، يوسف النبهاني الشاعر الفلسطيني الرائد، ج: 1، ص: 137_139

⁶. النبهاني، يوسف، الشرف المؤبد لآل محمد، ط1، ص: 130

⁷. نفس المصدر ص: 130_131

⁸. ماضي، د. عيسى محمد علي منصور، يوسف النبهاني الشاعر الفلسطيني الرائد، ص: 140-141

⁹. النبهاني، يوسف، الشرف المؤبد لآل محمد، ص: 130

عام 1948م، وخرج أهلها منتشنتين إلى الأردن والعراق وسورية ولبنان، يعيشون فيها على أمل العودة وليس على الله ببعيد، وفي الشهر الثاني في عام 1949م أقام اليهود في بقعتها مستعمرة كارم مهرا، وكان بها في نهاية 1950م 334 يهودياً.¹⁰ يقول الدكتور فاضل زيدان: إن أجزم تقع على مسافة 35 كم بجنوب حيفا، وعلى مسافة 20 كم بشرق البحر الأبيض المتوسط، وتقع على مرتفع من الأرض حوالي 300 متر فوق سطح البحر، يحيط بها من كل جانب سهل ضيق بمثابة واد يفصل جبلين، أما حدودها الطبيعية تحدها من الشرق تلة "شنا"، وهي لا يزيد ارتفاعها عن 100 متر، يفصل بينها وبين القرية سهل ضيق كان يستعمل للبيادر لسكان شرق القرية، وتله "شنا" وعره مكسورة بالأشجار قليلة الارتفاع، وفيها كثير من المقاطيع، وهي آبار منحوتة بالصخر هندسية الشكل يرجع عهدها إلى الرومان، وبها عدة كهوف تطل على القرية، لكل كهف باب يرتفع حوالي ستة أمتار عن مستوي البيادر، ويقع سهل ضيق يعرف "بمافورة" في شرق جبل "شنا" وجنوبها، حيث تكثر المياه الجوفية نسبياً فتزرع الخضار والفاكهة في "بمافورة".

وتحدها وادي النحل من الشمال وهو ملتف الأشجار ضخمة وخاصة شجر السنديان، وتكثر فيه الوحوش المقترسة، وتكثر خلايا النحل في شقوق صخره، وكانت الجبال في الربيع روعة في الجمال لكثرة الأزهار الملونة ذوات الروائح العطرية. وإلى الشمال من القرية يقع جبل المغارة، وفي جانبه وادي ضيق هو وادي المغارة الذي يمتلئ بالماء في أيام الشتاء، وفي نهاية جبل المغارة يوجد الكهف المشهور الذي جري فيه التقيب عن الآثار القديمة فوجد فيه مدافن وآثار ترجع إلى عهد الكنعانيين، وإلى الغرب منه جبل البياضة الذي يرتفع 500 متر عن سطح البحر، وبين هذا الجبل والقرية يقع "وادي الرملية" الذي يقع فيه نبع "العين" وإلى الجنوب يقع "وادي أبي سعيد" ويحده من جهة القرية جبل "أبي سعيد" وهو مرتفع أقل من 300 متر كثير الأشجار وعر السطح.¹¹

وقد نشأ النبهاني في أسرة كريمة مشهورة بالعلم والصلاح والتدين، وبمكارم الخصال والصفات الحميدة والمنزلة السامية، وكان والده الشيخ إسماعيل حافظاً متقناً لكتاب الله، فأقرأه القرآن الكريم، وحفظه الكثير من المتون في علوم الفقه والنحو والبلاغة، وأنشأه نشأة دينية ظهرت آثارها عليه في مسيرة حياته الطويلة، فكانت مدرسته الأولى بيته، ومعلمه الأول والده، وكان والده صالحاً يستغرق أكثر أوقاته في طاعة الله تعالى، وكان ورده في كل يوم وليلة ثلث القرآن، ثم صار يختم في كل أسبوع ثلاث ختمات¹²، فيبدو لنا مما ذكرنا في السابق أن الشيخ يوسف النبهاني قد رضع التدين والعمل للأخرة من بيئته الخاصة التي ولد فيها ونشأ.

والشيخ يوسف النبهاني تكلم عن نشأته في ترجمة نفسه شيئاً في كتابه "الشرف المؤبد لآل محمد" ولكن ترجمته لا تكتفي، وكان النقاد المحدثون يعيرون على هذه المناهج أن أصحابها قد تحاضوا ذكر الطفولة التي تعين على فهم الشخصية المترجمة حيث يعدون الطفولة الأصل الذي تتخذ الشخصية أساسها في التكوين¹³. وأما الطفولة عند العلماء السلف فهي ملأى باللهو، وهم لا يرغبون في عرفانها إلا ما يقربهم إلى الله، ولا يلتفتون إلى ما قد ينشأ عنهم من بحوث لدراسة شخصياتهم، وقد أوصي النبهاني بأن لا يروي من شعره إلا ما

¹⁰ الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، ج، 1، ق، 1، ص: 197

¹¹ نقلاً عن: يوسف النبهاني الشاعر الفلسطيني الرائد، رسالة الدكتوراه، لعيسى محمد على منصور ماضي، ص: 132-

¹² النبهاني، يوسف، الشرف المؤبد لآل محمد، 2007م، ص: 130

¹³ ضيف، د. شوقي، الترجمة الشخصية، مصر: دار المعارف، ط: 2000م، ص: 37-44

قاله في مدح النبي عليه الصلاة والسلام، مع أن حياته لم يتخللها فترات لهو ولعب، ولكنه كان يرغب في طمس معالمها.¹⁴

تعليم النبهاني: قد أرسله الشيخ إسماعيل إلى مصر لطلب العلم فدخل الجامع الأزهر يوم السبت غرة محرم الحرام افتتاح سنة ثلاث وثمانين بعد المائتين والألف، وأقام فيه إلى رجب سنة تسع وثمانين بعد المائتين والألف، وفي هذه المدة أخذ النبهاني ما قدر الله له من العلوم الشرعية والمعارف الدينية المتنوعة، وأخذ الإجازة للحديث والآثر، وللغنون الأخرى، كما يتحدث نفسه عنها: "وقد أجازني رحمه الله بإجازة فائقة، وهي هذه بحروفها بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لك الحمد على مرسل آلائك ومرفوعها، ولك الشكر على مسلسل نعماتك وموضوعها، بحسن الإنشاء وصحيح الخبر، يا من تجيز من استجارك وافر الهبات، وتجز من استجارك واعر العقبات، فيغدو موقوفاً على مطالعة الأثر، ما بين مؤتلف الفضل ومتفقه، ومختلف العدل ومفترقه، جيد الفكر سليم الفطرة، يجتني بمنتهج قياسه شريف الفوائد، ويجتني بمبهج اقتباسه شريف الفوائد، ويحلي نفيس النفوس بعقود العقائد الغرو، فإن صادفه مديد الأمداد، وصادقه مزيد الأجداد، وصفا مشرب الهني ولا كدر، ووجد درر الجواهر يا نعم الوجود، بادر عند ذلك بالاستفادة والإفادة، ولا أشر ولا بطر، فبذل المعروف وبدل المنكر، إذ ليس عنه إلا صحاح الجوهر، معنتي وما اقتني غيرها عندما عشر، لا يزور ولا يدلس، ويظهر ولا يدنس، ولا يعاني الشرر، فيا من من على هذا المنقطع الغريب، ومنحه منحة المتصل القريب، امنحني السلامة في داره ونجني من سقر، ومنك موصول صلوات صلواتك ومقطوعها، وسلسل سلسبيل تسليمتك ومجموعها، على سندنا وسيدنا محمد سيد نوع البشر، وعلى آله وأصحابه، وحملة شريعته وأحبابه، ومن اقتفي أثرهم وعلى جهاد نفسه صبراً، أما بعد فلما كان الإسناد مزية عالية، وخصوصية لهذه الأمة غالية، دون الأمم الخالية، أعتني بطلبه الأئمة النبلاء أصحاب النظر، إذ الدعي غير المنسوب، والقصي غير المحسوب، وسليم البصيرة غير أعشي الفكر، ولما كان منهم الإمام الفاضل، الهمام الكامل، والجهيد الأبر، اللوذعي الأريب، والألمعي الأديب، ولدنا الشيخ يوسف ابن الشيخ إسماعيل النبهاني الشافعي أيده الله بالمعارف ونصر، طلب مني إجازة ليتصل بسند سادتي سنده، ولا ينفصل عن مددهم مدده، وينتظم في سلك قد فاق غيره وبهر، فأحببته وإن لم أكن لذلك أهلاً، رجاء أن تفشوا العلم وأنال من الله فضلاً، وأنجو في القيامة مما للكاتبين من الصرر، فقلت أجزت ولدي المذكور بما تجوز لي روايته، أو تصح عني روايته، من كل حديث وأثر، ومن فروع وأصول، ومنقول ومعقول، وفنون اللطائف والعبير، كما أخذته عن الأفاضل السادة، الأكابر القادة".¹⁵

أخلاق النبهاني: كان الشيخ يوسف النبهاني يلتزم بالقرآن والسنة لا يلتفت إلى سواهما مما قد يقتضيه العصر، ولعل تربية والده ثم تعلمه في الجامع الأزهر على نظام الحلقات على مشاهير علماء عصره، كان له أكبر الأثر في تكوينه الخلقي، فمن أهم صفاته الخلقية: التواضع، والحلم، والعفة، والنزاهة، والحصافة، والجرأة، وقوة الإرادة، وقلة الكلام، وحسن الظن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويمكن القول باليقين أن معالمه الخلقية قد تحددت قبل أن يذهب إلى الجامع الأزهر، لأنه عاش طفولته وبواكير شبابه تحت رعاية والده الصوفي الزاهد العالم الملتزم بالقرآن والسنة.

ويذكر النبهاني أنه كان يحضر في حلقات جمال الدين الأفغاني وهو يظهر نحوه الميل والقبول، ولكن النبهاني ترك مجلسه حينما رأى أنه يسئ الظن بالصوفية، والنبهاني رأي الشيخ الشربيني يطرد الأفغاني من

¹⁴. راجع للتفصيل إلى الكتاب: أسباب التأليف من العاجز الضعيف للشيخ يوسف النبهاني، ص: 390-393

¹⁵. نفس المصدر، ص: 130-131

الأزهر، ويضربه بعصاء¹⁶، فهذا يدل على أن خلق النبهاني وتفكيره قد تحدد سابقاً، لذلك يرفض أي فكر يعارضه.

وأما الحلم من معالم أخلاقه، ما حدثني به الشيخ عبد الله العلابي بمنزله في بيروت يوم 1975/1/5-فقال: " كان من أصدقاء الشيخ يوسف النبهاني المقربين الشيخ محمد العربي العروني أمين الفتوي في لبنان، وهو محدث كبير وصوفي وحافظ، وقد عزم الشيخ يوسف النبهاني على الطعام، ودخل عليهما رجل اسمه أبو محمد الجزائري، وكان دلالة، ولما رأي الشيخ النبهاني أخذ يتناوله بالسباب والشتائم والشيخ النبهاني مطرق برأسه لا يتكلم بشيء وهذا دليل على حلمه".

ويقول أيضاً عبد الله العلابي: "وقد كان الشيخ يوسف قليل الكلام ومن يجلس معه يشعر بروحانيته، إذا تكلم عن شؤونه الخاصة تكلم ببطيء. وكان في لسانه تأنأة وإذا تباحث أحد معه في أحد المسائل وأوجه لبيان وجهه نظرة يفيض كالبحر". وكان الأمر بالمعروف من عادته طالما اجتمع في بيته نسوة وحن وقت غروب الشمس من المهندس يوسف النبهاني أن أخبر النساء بوجوب ذهابهن إلى بيوتهن وأزواجهن. ومن أشهر معالم خلقه أيضاً: الحكم بالشرعية الإسلامية: أن الشيخ النبهاني اشتغل برياسة محكمة الحقوق في بيروت حوالي سنتين وعشرين سنة متوالية، وكان فيها كما قال الشيخ مصطفى البابي الحلبي: "وكان من قضاة عصره وأفضلهم وأشهرهم"، وذكر في الشعر الآتي أن النبهاني ما رشأ قط،

لعمري والصبا في العنقوان
ولا قالوا فلان قد رشأني¹⁷

وليت الحكم خمسا وهي خمس
فما وضع الاعادي قد رشأني

والشيخ يوسف النبهاني قد ولي الحكم ثلاثين عاماً، منها اثنان وعشرون في بيروت، والباقي في بيت المقدس واللاذقية، ويقول بنفسه عن ذلك: والله أني لا أذكر أني حكمت في هذه المدة حكماً مخالفاً للشرعية المطهرة أو لغرض سوي إتباع الحق بحسب مقدرتي ومعرفتي، ولذلك رأيت في منامي وأنا في المدينة المنورة أن محكمتي في جانب محكمة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكأنا معه أحياء، والحمد لله رب العالمين.

ويتكلم فضلاً عن هذا عن فصله من وظيفته المذكورة أن فصله منها كانت له نعمة من أكبر النعم التي أنعم الله عليه، فإنه سبحانه تعالي وفقه من حين فصله منها إلى الآن لزيارة حبيبه المصطفى عليه أفضل الصلوات والتسليمات بجوارحه مدة سبع سنوات ما عدا أيام الصيف عند شدة الحر، فكنت أرجع إلى بلاد الشام فأقيم فيها مدة الصيف ثم أرجع.¹⁸

فيبدو مما استعرضنا أن الشيخ يوسف النبهاني قد أشتهر بالتصوف ومن أهم أخلاقه وعاداته التواضع، والحلم، والأمانة العلمية، وقلة الكلام، والعمل بالشرعية الإسلامية، وكان أيضاً مشهوراً بالعفة، والنزاهة أثناء مدة أعماله في القضاء، كما كان مضرب المثل في قوة الإرادة، والجرأة بالقضاء للحق، ولا يقبل شفاعاة أحد في أحكامه، وقد زانه الله بالحصافة، والعزة، والهيبة والوقار.

التصوف في حياة النبهاني: كان الشيخ يوسف النبهاني قوي الإيمان، ومدافعاً عن الإسلام، ولم ير أحد منه ما يعيب دينه، وكانت عقائده مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وكان على ما كان عليه رسول الله صلي الله عليه وسلم وأصحابه المهديين وأولياء الله من أهل التصوف، يعد من الصوفية البارزين في العصر الحديث،

¹⁶. النبهاني، يوسف، جواهر البحار، ج: 2، ص: 57-58.

¹⁷. ماضي، عيسى محمد على منصور، يوسف النبهاني الشاعر الفلسطيني الراحل، ص: 241-242.

¹⁸. النبهاني، يوسف، الدلالات الواضحات على دلائل الخيرات، ذ: 5-6.

تشهد على ذلك كتبه الحافلة بآداب الصوفية وسيرهم وأخلاقهم، وحب الصالحين، والإكثار من ذكرهم، وأخذ النبهاني العديد من الطرق الصوفية من عدة العلماء والمشايخ، وصار صوفياً مشهوراً عاملاً بالشرعية الإسلامية جلّها، فمن طرقهم:

- 1- الطريقة الإدريسية، أخذها عن الشيخ إسماعيل النواب.
- 3- الطريقة الشاذلية، أخذها عن محمد بن مسعود الفاسي، وعلي نور الدين اليشرطي.
- 4- الطريقة النقشبندية، أخذها عن إمداد الله الفاروقي، وغيث الدين الإربلي.
- 5- الطريقة القادرية، أخذها عن حسن بن أبي حلاوة الغزي.
- 6- الطريقة الرفاعية، أخذها عن عبد القادر بن أبي رباح الدجاني اليافي.
- 7- الطريقة الخلوتية، أخذها عن حسن رضوان الصعيدي.¹⁹

حياة النبهاني الخاصة: تزوج الشيخ يوسف النبهاني من السيدة صفية بنت محمد بك السجعان من وجوه بيروت وذوي البيوت القديمة الكريمة، ويقول النبهاني فيها: "وهي من الصالحات الصادقات فإني ما عهدت عليها بكذبة قط"²⁰، وقد أنجب النبهاني من السيدة صفية ولداً واحداً وثلاث بنات، فاسم الولد محمد شمس الدين، وكنيته أبو المكارم، وأسماء البنات تقيّة وعائشة وفاطمة، وقد ذكر النبهاني أحوال ولادة ولده محمد شمس الدين، فقال: "... بعد كتابتي ما من مناقب الأستاذ محمد البكري المذكور رضي الله عنه رزقني الله وله الحمد والمنة في مدينة بيروت غلاماً من زوجتي الصالحة التقيّة صفية بنت الماجد المقدم المرحوم محمد بك السجعان من وجوه مدينة بيروت وذوي البيوت القديمة الكريمة فيها، فسميته محمداً، ولقبته شمس الدين، وكنيته أبا المكارم تبركاً باسم النبي صلي الله عليه وسلم، وهو المقصود الأصلي، وأسم سيدي محمد البكري المذكور، ولقبه وكنيته رضي الله عنه، وكانت ولادة ولدي المذكور نصف الساعة الثالثة من ليلة السبت الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة من العام الثلاثمائة وألف، وحمل أمه أربعة عشر شهراً وسبعة عشر يوماً، فقد وقع الحمل يوم الثلاثاء من شهر شوال من العام الماضي، وقد عرفنا بحمله علامات وقرائن قوية دللتنا على وقوع الحمل في ذلك اليوم بيقين، بحيث لم يبق عندنا في ذلك شك، وبعد الحمل ينجو أربعة أشهر وهو وقت دخول الروح فيه كما في الحديث رأت أمه -وهي من الصالحات الصادقات فإني ما عهدت عليها بكذبة قط- رؤيا حق إن شاء الله وهي أنها رأت في منامها أن شمساً طلعت من الشمس مشرقة وعلت في السماء مقدار علوها وقت الضحى، ثم نزلت وجاءت ودخلت فيها، فتحققت في المنام أنها حملت، وأخبرتني بهذه الرؤيا المباركة في صباح تلك الليلة، فسرتت جداً، وكنت عازماً إذا رزقني الله ولداً أن اسمه محمداً ولقبه ناصر الدين لأنه لقب أحد أجداده، فلما قصت على هذه الرؤيا صممت على تلقبته شمس الدين، وأخبرت بذلك كثيراً من أصدقائي قبل الولادة وبعد إكمال مدة التسعة الأشهر التي هي غالب مدة الحمل ظهرت علامات الولادة ثم ذهبت وصارت تذهب وتجي حتى عجبنا من هذا الحال، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن ولد في الوقت المذكور.

ومما يدل على أن هذا المولود سيكون من الصالحين الأخيار، إنني حينما قربت من والدته في المدة التي حملت به فيها كنت أزهّد ما كنت في الدنيا، وأرغب مما كنت في الآخرة بسبب مرض شديد قصر أمني وضاعف عملي والحمد لله على زواله، وقد نص القطب الكبير عبد الوهاب الشعراني في كتبه على أن المولود يكون على الحالة التي عليها والده حين تزول النطفة التي تخلق منها، وإذا قد وافق وفقه الله سيدي محمد البكري

بالاسم والكنية واللقب وشهر الولادة ذي الحجة أسأل الله الكريم الوهاب أن يوفقه أيضاً في العلم والعمل والمعارف اللدنية والقبول التام عند الله وعند الرسول".²¹

وقد تخرج محمد شمس الدين من مدرسة الحقوق في تركيا، واشتغل مدعياً عاماً في بعلبك، ثم عين قاضياً في طرابلس، ثم اشتغل محامياً في بيروت بعد ترك عمل القضاء، وقد تزوج فاطمة بنت الشيخ محمد صادق الجبالي التونسي، وأما بنات الشيخ يوسف النبهاني فقد تزوجت تقيّة الشيخ أبراهيم النبهاني، وعائشة قد تزوجها الشيخ صادق الجبالي التونسي، وفاطمة قد تزوجت الشيخ عبد الوهاب الخطيب نقيب أشرف حيفا.²²

وفاة النبهاني: وقد توفي الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله في العاشر أو الحادي عشر من رمضان المبارك سنة 1350هـ، وبذلك قد عاش أربع وثمانين سنة، حيث ولد عام 1266هـ، وقد حدثني الأستاذ يوسف النبهاني -الحفيد - عن وفاته فقال: "كانت صحته جيدة ثم مرض بالنزلة الصدرية وتوفي خلال 24 ساعة، وفي أثناء مرضه بعث إلى أبي بلال خير الدين وهو حفيده وطلب منه أن ينزع حذائه -أي الشيخ يوسف- ويغسل يديه، ثم لبس لباسه الأبيض ونام، ففاضت روحه إلى خالقه، وكان آخر ما قاله: "اللهم لا تفني ولا تقن أحداً من ذريتي".²³

وتحدث الشيخ مختار العلايلي أمين الفتوي في لبنان مع الدكتور عيسى محمد علي منصور ماضي عن وفاة النبهاني، فقال: "وقيل إن ينتقل الشيخ يوسف النبهاني إلى الرفيق الأعلى رأي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقال له ما معناه: "أخبر الشيخ مصطفى نجا²⁴، أني مشتاق إليكما، ولما أخبر الشيخ يوسف الشيخ مصطفى نجا بذلك، انهمر بالبكاء وهما متعانقان لمدة طويلة، وفعلاً توفي الشيخ مصطفى نجا في السنة نفسها التي توفي فيها الشيخ يوسف النبهاني رحمهما الله²⁵، وقد وصف له الشيخ مختار العلايلي جنازة الشيخ يوسف النبهاني كما راها، ولكن الدكتور عيسى محمد علي منصور ماضي وجد ما وصفه له غير كافي فبعث رسالة للشيخ محمد نمر الخطيب رئيس الرابطة الإسلامية في بيروت، فبعث لي رسالة مؤرخة في 21 ربيع الثاني 1295 الموافق 1975/4/21م، هذا نصها:

توفي الشيخ يوسف النبهاني في 10 أو 11 رمضان المبارك، 1350هـ/ 1932م، مات قبل الشيخ مصطفى نجا الذي توفي في 27 رمضان من العام المذكور، وهو الذي هيا القبر وأعد له ترتيب الجنازة بالاشتراك مع الشيخ توفيق الهبري -وقد بدأ كأنه شاب عند تجهيز الجنازة والإشراف عليها، والشيخ صالح كفتارو إمام مسجد قرية بابيلاء وهو عم الشيخ أحمد كفتارو²⁶، وقد كان خليفة للشيخ عيسى الكردي الذي كان شافعي زمانه، وكان مرجع أهل بيروت، وكان الشيخ صالح يأتي لبيروت يعطي الطريق ويبث العلم، وكان صاحب همة عالية.

وقد يبين الدكتور ماضي الأنوار والرؤيا التي رآها المشايخ وقت التجهيز والتشييع، فقال: دخل المسجد العمري مع الشيخ مختار إمام مسجد النبي يحيي، وبينما كانا جالسين إذ أتني رجل يسأل عن الشيخ يوسف النبهاني، فأجيب بأنه توفي فقال سبحانه الله لقد أتيت إلى هنا لرؤيا رأيتها، وخلصتها أني رأيت نفسي أدخلت الجنة ورأيت أنه وزعت علينا باقات زهور، فسألته عن السبب فقيل إنه سيأتي الشيخ يوسف النبهاني. وقد حضر جميع مشايخ بيروت في الجنازة، ومنهم توفيق الهبري ومصباح شتيلو ومحمود محرم وهاشم الخليلي

²¹ نفس المصدر ص: 147-148

²² ماضي، د. عيسى محمد علي منصور، يوسف النبهاني الشاعر الفلسطيني الرائد، ص: 144-146

²³ مقابلة مع الأستاذ يوسف النبهاني، الحفيد، في 1/12/1974م/

²⁴ هو مصطفى بن محي الدين بن مصطفى بن محمد عبد القادر نجا مفتي بيروت سنة 1327 إلى أن توفي له عدة مؤلفات

في التربية والتصرف والتفسير وديوان شعر، راجع ترجمته في الأعلام، ج 8، ص: 147-148

²⁵ مقابلة مع الشيخ مختار العلايلي أمين الفتوي في بيروت زرته في 8 أو 10/12/1974م.

²⁶ مفتي سوريا سابقاً.

الشريف ومختار العلايلي، وصلي الشيخ مصطفى نجا على الجنازة، وقد مشوا خلف الجنازة ومشى في آخرها الشيخ الكردي والحاج حمدي الكوي.²⁷

وقد أخبر الشيخ الكردي أن الأنوار كانت تحط من السماء إلى الأرض إكراماً للشيخ النبهاني، ولما وصلنا للحفرة وجدنا أحمد فليقل وهو رجل صالح محب للرسول عليه الصلاة والسلام ومحب للنبهاني، وكان يجمع المحبين يصلون على الرسول عليه الصلاة والسلام، وهنا أخذت سنة من النوم الحاج الكوي، فرأى رسول الله صلي الله عليه وسلم مع أبي بكر وعمر يتقبلون النبهاني ويضعونه في القبر 010هـ.²⁸

"وفي مقابلة لي مع فضيلة الشيخ عبد الله العلايلي نابعة لبنان وحجة العلم، وقد كان غائباً وقت تشيع الجنازة قال " ... وقد حضر تشيع الجنازة رهط من العلماء والصالحين منهم الشيخ صالح الكردي الذي كانت له همة عالية وقدم راسخة وأحوال مع الله وقد أخبر بعض المشيعين أنه رأى الأنوار متجهة من السماء إلى الأرض في أثناء الجنازة".²⁹

والشيخ توفيق الهبري قام بتنظيم الجنازة خير تنظيم، فوضع العلماء في المقدمة والوجهاء من ورائهم، ووضع بعد ذلك كل طبقة في مكانها، كما أتى بفرق الكشافة وغيرها، وكان الناس جمماً غيراً لم ير الناس مثله، وفي أثناء الدفن أخذت جماعته المحبين من أهل الصلاح والتقوى يتلون القرآن الكريم، ويرفعون أصواتهم بالصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد تأخر الدفن بسبب أعمال الحفرة التي لم تتم بسرعة، وفي هذا الأثناء كان رجل صالح من المشيعين قد أخذته سنة من النوم، فشاهد فيما شاهد الرسول صلي الله عليه وسلم مع بعض الصحابة كأبي بكر وعمر يستقبلون الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله، وهذا يدل أكبر دلالة على مكانة الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله عند الله تعالى.³⁰

وقد دفن الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله في مقبرة الباشورا، وضريحه يزار، أتم بناءه عبد الله اليميني خادم الطريقة الرشيدية الدندراوية في بيروت، ويقول الدكتور عيسى محمد علي منصور ماضي: "وقد أخبرني حارس المقبرة أنه يأتي أناس من مختلف الجنسيات لزيارته، وقد وجدت على نصيبة القبر الأبيات التالية:

هذا ضريح العالم الرباني	حسان أحمد يوسف النبهاني
في دينه والذب عنه ومدحه	ستون تأليفاً كعقد جمان
يا زائراً فأقرأ له ما شئت من	سبع مثنان ثم من قرآن
وأدعو الإله بما تشأ لعله	لك يستجيب بوابل الإحسان
لما دعاه الله في رمضان	لباه يذكره بخير لسان
ولسان قدرته يقول مؤرخاً	للخلد أرفع يوسف النبهان" ³¹

وقد وقع نعي الشيخ يوسف النبهاني على قلوب المسلمين وعلى مختلف الأوساط وقعاً شديداً، حينما سمع أحد ممن يعرفه أشاد بذكره موضحاً مكانته العلمية والروحانية والسياسية في عصره، ولكن القاصد في رثائه

²⁷. نقلاً عن: يوسف النبهاني الشاعر الفلسطيني الراحل، رسالة الدكتوراه، لعيسى محمد علي منصور ماضي، ص: 147-

148

²⁸. نفس المصدر، ص: 148²⁹. نفس المصدر³⁰. نفس المصدر³¹. نفس المصدر، ص: 149

ما نظمت بالكثرة، وكأنه محبيه لم يشهروه لأنه كان لا يرتضي من الثناء والشهرة أثناء حياته، وممن قام برثاء الشيخ يوسف رحمه الله الشيخ داود رحمه الله فقال في مرثية طويلة:

هل قضي نحبه حليف المعاني	صفوة الناس من أولي العرفان
قدوة العاملين في وقته بل	خير حبر و عالم رباني
هل مضي خير عالم قد علمنا	محباً للمصطفى العدنان
ناشر الحق ناصر الدين والمن	ة ذو الفضل يوسف النبهاني
رضي الله عنه كان همماً	بل إماماً علا على الأقران
رضي الله عنه كان زكياً	ألمعياً وآيةً في البيان
كان خراً بين الأنام أبيعاً	ليس ترضيه ذلة الإنسان
كان في ذلة المساكين لله	وبين الوري كذي السلطان
وإلى كم أقول كان لشيء	ليس يحصي بل ليس في الإمكان

ويقول الدكتور ماضي أن الشيخ يوسف النبهاني ما ترك وصيةً، لأنه لم يترك ورائه مالاً حتى يوصي منه، وأخبرني الدكتور احسان عباس³² "أن المساجد في فلسطين قد أذنت في غير وقت الصلاة للأخبار بوفاة الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله ورضي عنه وأرضاه"، ويقول أيضاً الدكتور عيسى أنه لم يجد شعراً سوي الأبيات المذكورة، ويوجد فيها الضعف الفني.³³

ونحن نقول في الأخير إن شخصية النبهاني من أهم الشخصيات الإسلامية التي تعد إحدى منابع العلم ومصادره في القرن التاسع عشر، وهو عمدة المحققين الأمثال فيه، ومن أشهر أعلامه، ومن رواد النهضة في العالم العربي، ولاغرو في ذلك فهو الإمام المحدث الفقيه الأصولي المفسر المتكلم النظار المؤرخ اللغوي النحوي الأديب الشاعر قد خُلف لنا مؤلفات قيمة وأثراً خالدة في مجالات كثيرة: دينية وأدبية ولغوية، فقد توزعت أعماله حول التفسير والحديث وعلم مصطلح الحديث والفقه والأصول والتصوف وعلم الكلام وحياة الرسول ﷺ، وكتب الشعر، وقد تعددت دواوينه وقصائده، خاصة في النواحي الإسلامية والمدائح النبوية وغيرها، وأشتهر بها النبهاني بين الأوساط العلمية والأدبية.

المصادر والمراجع:

- 1_ البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق: محمد بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، 1993م.
- 2_ الدباغ، الأستاذ مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، منشورات دار الطليعة، بيروت
- 3_ الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.
- 4_ سركيس، يوسف اليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1919م.

³² الدكتور احسان عباس رئيس قسم الدائرة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت، وهو من قرية عين غزال تبعد مسافة 15 كم عن قرية أجزم مولد الشيخ يوسف النبهاني.

³³ راجع للتفصيل إلى: يوسف النبهاني الشاعر الفلسطيني الرائد، ص: 150-151

- 5_ ضيف، د. شوقي، الترجمة الشخصية، مصر: دار المعارف، ط: 2000م
- 6_ النبهاني، يوسف، الشرف المؤبد لآل محمد، تحقيق: أبو الفضل أحمد بن منصور قرطام، الطبعة الأولى، 2015
- 7_ طرف الاصحاب في معرفة الأنساب
- 8_ مجاهد، زكي محمد، الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشر الهجرية، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م.
- 9_ ماضي، د. عيسى محمد علي منصور، يوسف النبهاني الشاعر الفلسطيني الرائد، الرسالة المقدمة لنيل شهادة الدكتوراه بجامعة الأزهر، 1977
- 10_ النبهاني، يوسف، أفضل الصلوات على سيد السادات، دار الطبع للطباع والنشر والتوزيع، دمشق
- 11_ النبهاني، يوسف، جواهر البحار، دار الكتب المصرية
- 12_ النبهاني، يوسف، الدلالات الواضحات على دلائل الخيرات، نسخة مكة المكرمة، 2007م
- 13_ النبهاني، يوسف، الشرف المؤبد لآل محمد، المكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 2007
- 14_ النبهاني، يوسف، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، دار الفكر، بيروت